١٢ عاتكة بنت زيد
صحابية يتزوجها الشهداء

السيدة عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، من المسلمات العابدات القانتات، وهى ممن عاصَرْن النبى ﷺ، وممن آمَنَّ برسالته من نساء قريش قبل الهجرة، حتى إذا هاجر إلى المدينة كانت من السابقات إلى الهجرة.

والسيدة عاتكة رضى الله عنها أدركت، الإسلام مبكراً، فعرفت أن هذا الدين الحنيف يهتم ببناء شخصية المرأة على أساس من المساواة فى الإنسانية مع الرجل، وأنه ينبغى أن تتحمل المسئولية مع الرجل أُمّاً كانت أو شقيقة، أو زوجة، على اعتبار أنها تمثل نصف المجتمع الجديد.. هذه المسئولية التى جاء بها الذين كان يقويها التعلم والثقافة.

فهذا الدين قد حرص على تدعيم شخصية المرأة ـ بكراً كانت أو متزوجة، أو مطلقة، أو أرملة.. فاهتم باحترام رأيها فى حياتها وحفظها من كل ما يقلل من شخصيتها، حتى اهتم بأدق أمورها وخصائصها، وهو ما يخالف كل الشرائع السابقة التى امتدت إليها يد التحريف وحتى المدنية منها، وهو أمرٌ أكده الكثيرون من الباحثين والدارسين وفقهاء القانون.

كذلك عرفت هذه السيدة الفُضْلَى فيما تقرؤه وتسمعه عن الإسلام أنه لم يمنح هذا الاهتمام المميز للمرأة فى كل مراحل حياتها وظروفها الاجتماعية، أو بدافع الضرورة، أو خضوعاً للحاجة فحسب، بل لكونها كائناً يستحق هذا الاهتمام، وذلك الحرص.. ولذلك كانت هذه السيدة من السابقات إلى الإيمان بهذا الدين الذى يكرم بنات جنسها ويجعلهن أكثر كرامة مما سمعت ورأت فى الجاهلية..

وكان إيمانها عن اقتناع وتروٍّ، وليس عن اضطرار، أو قسر لطبيعتها التى سنعرف عنها الكثير بعد قليل.

فهى إلى جانب إيمانها بهذا الدين الحنيف، وهجرتها مع من هاجر من مكة إلى المدينة فى صحبة النبى ﷺ، وجهادها وعملها فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية فى بدايتها.. إلى جانب كل هذا ـ وهو فضل عظيم ـ فإن هذه السيدة كانت تتمتع بميزتين على جانب كبير من الأهمية فى زمانها، بل لعلها كانت تتفرد بهما عن كثيرات من بنات جنسها فى ذلك الحين.

أما الميزة الأولى التى تفردت بها السيدة عاتكة رضى الله عنها، فقد كانت على قدر كبير من الثقافة والمعرفة، مما جعل لوجودها معنى وقيمة ودلالة، بل وحضوراً يشد الانتباه.. فالمعروف أن السيدة عاتكة كانت من الشاعرات القليلات اللائى كُنَّ يَقُلْنَ الشعر فى الأغراض السامية، ولها فى ذلك شعر كثير، وكانت من النادرات اللائى يقرأن ويكتبن.

والميزة الثانية التى كانت تنفرد بها السيدة عاتكة رضى الله عنها هى أن الله حباها حسناً وجمالاً ملحوظين.. كما زادها الإيمان والتقوى والورع حُسْناً على حُسن، وجمالاً على جمال، حتى كانت مضرب المثل بين النساء عند أهل زمانها فى ثقافتها الشاعرية، وجمال خَلْقها وخُلُقها.

ولأن هذه السيدة الفُضْلَى كانت مؤمنة قانتة، شاعرة مثقفة، حافظة لنفسها.. فقد سارت على تعاليم هذا الدين الجديد.. الذى بَشَّر به محمد بن عبد الله فى الجزيرة العربية.. هذه التعاليم التى تهيب بالمرأة أن تعصم نفسها، وتحافظ على كرامتها، وتتبع سنن دينها، فلا تسمح لنفسها بالخطأ أو الزلل، أو معصية الخالق سبحانه وتعالى، فلا تفعل إلا ما شرعه وأمَرَ به، ولذلك نراها ـ وهى على هذه الصفات من نساء زمانها ـ قد تزوجت أكثر من مرة، من أكثر من رجل من الرجال المشهود لهم بالتقوى والصلاح فى صدر الإسلام، وهو أمرٌ مشروع.. وليس كما فسره بعض المستشرقين وخاضوا فيه.

فكانت زيجة هذه السيدة الفضلى الأولى من عبد الله بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم جميعا.. وكما تقول المصادر والروايات قديمها وحديثها: إن هذا

الزواج قد تم فى بداية الدعوة الإسلامية، والتى كانت تتطلب من المؤمنين فيها جهاداً مضاعفاً ومتصلاً.. وكما تقول هذه المصادر والروايات أيضا: يبدو أن هذا الزواج فى بداية أيامه ـ شأنه كشأن أى زواج ـ قد شغل عبد الله بن أبى بكر عن مواصلة الجهاد، أو جعله يتباطأ فيه أيّاما قليلة هى التى تعقب ـ عادة ـ عقدالقران عند المتزوجين حديثاً.. غير أن هذا المتزوج ـ عبد الله رضى الله عنه ـ ليس ككل المتزوجين ولهذا يأمره أبوه أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يُطلق هذه السيدة إذا كانت تشغله عن أمر دينه والجهاد من أجله ولو أياماً.. فيصدع الابن لأمر أبيه رضى الله عنهما، برغم إعزازه وتمسكه بهذه الزوجة المؤمنة، فيطلقها، وينشد فى ذلك شعراً:

يقولون طلقها وحم مكانها ... مقيم عليك الهم أحلام نائم
وإنّ فُراقَ أهلِ بيتٍ جمعتهم ... علىَ كبر منى لإحدى العظائم

لكن الحزن يأخذ بكل أقطار نفس عبد الله رضى الله عنه، وإنْ لم يصرح به، إلا أن كُلَّ مَنْ رآه لاحَظَ عليه ذلك، وكان فى مقدمة من لاحَظَ ذلكَ والده الصديق أبو بكر رضى الله عنه، حتى إذا دخل عليه يوماً سمعه ينشد أبياتاً، منها:

أعَاتكُ قلبى كل يوم وليلة ... عليك بما تخفى النفوس مُعَلَّقُ
ولمَ أرَ مثلى طلَّقَ اليوم مثلها ... ولا مَثلها فى غير جُرْمٍ تُطَلَّقِ
لها كَلَفٌ جزلٌ ورأىٌ ومنصب ... وخلقٌ سَوِىٌّ فى الحياة مُصَدَّقُ

وظل الصديقُ ـ رضى الله عنه ـ ساهماً وهو يسمعه، متأثراً بكل كلمة يقولها هذا الابن، الذى تحمَّل صادقاً كل هذا العذاب فى سبيل طاعة والده، فى أمرٍ كان لا قبل له على تحمله.. ولكنه برغم كل شئ نفذه ولو على حساب نفسه.. وهنا رق قلب الصديق أبى بكر رضى الله عنه.. فأمر هذا الابن المطيع بأن يُرجعها رحمة به، وكان لهذا الأمر وقعٌ عظيم بالنسبة للابن، حتى أنه أنشد شعراً منه:

أعاتكُ قد طُلِّقْتِ فى غير ريبة ... ورجعت للأمر الذى هو كائنُ
كذلك أمْرُ اللهِ غادٍ ورائحٌ ... على الناس فيه أُلفة وتباين

غير أن عبد الله رضى الله عنه لم يسعد طويلا برجعة زوجته عاتكة رضى الله

عنها، ولم يهنأ الزوجان المؤمنان بعودة السعادة إليهما طويلا، إذ سرعان ما عاجلت الزوج المحب منيته فى واحدة من غزوات الجهاد فى سبيل الله، حيث خرج فى سرية من السرايا التى كانت تدفع الزوج عن الإسلام فى الطائف.. فأُصيب بسهم ومات لحينه فى المدينة بعد أن نقلوه إليها متأثراً بجراحه.

وبديهى والأمر كذلك أن تحزن هذه السيدة الفضلى على هذا الزوج المحب المجاهد فى سبيل الله حزناً شديداً، عبرت عنه، وهى الشاعرة المحبة، المؤمنة بقضاء الله، وبنُصرة دين الإسلام، وأودعت كل أحاسيسها فى كلمات قصيرة طويلة مشحونة بكل معانى النبل والوفاء، جاء فيها:

رُزِئْتُ بخير الناس بعد نبيهم وبَعْدَ أبى بكر وما كان قَصَّرَا

ولكن امرأة على هذا الحُسْن والجمال، والوعى والثقافة، والشاعرية والأدب، وقبل كل ذلك وبعده الإيمان والتعبد.. لايمكن أن تعيش بين الرجال بغير زواج.. لكن مَنْ ذا الذى يستطيع أن يحتل فى قلبها مكانة رجل مُحبٍّ رفىٍّ مؤمن استشهد فى سبيل الله، حتى قالت عنه بأنه لايسبقه فى الفضل غير النبى ﷺ والصديق أبى بكر رضى الله عنه؟ لقد كان هذا الرجل هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. لقد تزوجها ثانى الخلفاء الراشدين، وعاشت معه إلى أن قُتل هو الآخر.

ولم يجرؤ على التقدم لخطبتها أو الزواج منها رجل بعد الفاروق عمر رضى الله عنه فترة من الوقت، وإنْ كان هناك من كان يتمناها من الصحابة.. حتى تقدم صحابى جليل هو الزبير بن العوام رضى الله عنه فاختارها زوجة له ومع زوجته أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أو كما يُطلق عليها: ذاتُ النطاقين.

وتذكر المصادر التاريخية قديمها وحديثها أن الزبير رضى الله عنه كان يغار عليها غيرة شديدة، وصلت إلى درجة أنه كان يمنعها من الخروج إلى المسجد للصلاة.. وكانت رضى الله عنها تبرر له ذلك، فقد أدركت بحسها ووعيها أنه مُحبٌّ لها حُباً مَلَكَ كل أقطار نفسه، فكانت تشفق عليه وتقول له فى رفق وعتاب: «لا أزال أخرج حتى تمنعنى» فيرد عليها بما يفيد أنه يغار عليها لجمالها.. فتذكره بقول النبى ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله من مساجد الله» فيرضخ لذلك قائلا: «هو حق

وصدق». ولكن طبيعة البشرية تغالبه ويعاود الغيرة عليها مرة ومرات.. حتى إذا تنكر لها فى مكان مظلم فَزِعَتْ ورجعت إلى بيتهما، وامتنعت عن الخروج إلى المسجد، ولم تفاتحه فى هذا الأمر، لأنها تدرك إنما يفعله لِفَرْط حبه لها وكلفه بها. إلى أن قال لها يوماً: لما لا تخرجين إلى المسجد؟ «فردت عليه وأجملت ما تكنه فى صدرها، حريصة على ألاَّ تجرح مشاعره، وفى الوقت نفسه تبلغه رسالتها كزوجة وفية ومثقفة لها رأى فتقول له: «كنتُ أخرج والناسُ ناس.. وأما إذا فَسَد الناس فبيتى أوسع لى وأرحب أؤدى فيه فريضة ربى».

لكن يبدو أن سوء الطالع كان يلازم هذه السيدة الفضلى برغم إيمانها وصلاحها وتقواها.. فلا تدوم حياتها الزوجية مع أفاضل الرجال، حيث يُقْتَلُ الزبير بنْ العوام رضى الله عنه فى وقعة الجمل، ويُدفن هناك بعيداً عن المدينة المنورة بالبصرة فى العراق.

وهنا تتزوج عاتكة محمد بن أبى بكر، شقيق زوجها الأول عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهم.. وتدوم العشرة بينهما حيناً، ينجب خلالها منها ابنهما «القاسم» الذى كان يُكنى به، والذى يصبح فيما بعد من أكبر علماء زمانه، حيث يعتبر من فقهاء المدينة السبعة.

ولا تدوم هذه السعادة بالزواج والولد.. حيث يتولى محمد بن أبى بكر إمارة مصر من قِبَلِ ثالث الخلفاء الراشدين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، ليقتل هو الآخر بمؤامرة حاكها معاوية بن أبى سفيان وحليفه عمرو بن العاص وأصحابهما.. وتُجْمَعُ أشلاؤُهُ فيما يشبه الجوال ويوضع فوق ظهر حمار يدورون به فى أحياء الفسطاط بمصر، الذى كان حاكمها وراعيها التقى. فلا تبكى ولا تنعى ولا ترثى هذه الزوجة فى زوجها الورع والتقوى والإقدام فحسب، وإنما تبكى وتنعى وترثى حال الدوله الإسلامية التى دبت فيها الفتنة، وأصبح نفر من الصحابة يأتمر بعضهم على بعض، حتى تتفرق هذه الأمة إلى شيع وأحزاب، والأكثر من ذلك أنها تتحول من أمة إسلامية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إلى مُلْك عَضوض أسسه معاوية بن أبى سفيان ليتوارثه أبناؤه من بعده.. وفى هذا تنشد هذه الزوجة الثكلي قصيدة طويلة تشير إلى هذه الفتنة مطلعها:

إنْ تَقْتُلوا وتمثِّلُوا بمحمد فما كان من أجْلِ النساء ولا الخمر

اللائي لحالها بعد مقتل زوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو يومئذ خليفة للمسلمين، فيخطبها لنفسه.. وعندما تدرك أن هذه الخطبة إنما هى بوازع الإشفاق ترفض بشجاعة.. فما كان الرفض سهلا من أىٍّ من النساء اللائي يخطبهن رجل فى مثل مكانة على بن أبى طالب، وكيف ترفض ويكفيها فخراً بأنها ستكون بديلة لفاطمة الزهراء رضى الله عنها بعد الوفاة؟ غير أن هذه السيدة الفضلى رفَضَتْ، وكان رفضها لأمير المؤمنين عَذْباً رقيقاً لطبيعتها، قائلة: «إنى أضِنُّ بك يا بن عم رسول الله على القتل».. مشيرة فى هذا الرد بما كان يتندر به المسلمون قائلين: «مَنْ أحب الشهادة فليتزوج عاتكة» إشارة إلى أن كل من تزوجها مات شهيداً.

وكان آخر أزواج السيدة عاتكة بنت زيد ـ كما جاء فى كتب الأغانى والاستيعاب، ومعجم البلدان ـ الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، وعاشت معه وقتاً طيباً.. وآمنت بدعوته إلى أن قُتل فى كربلاء ومثلوا بجثته فرثته بقصيدة طويلة:

راحنا لانسيت حسينا اقصدته أسنة الأعداء

وكان من الطبيعى، وقد آلت الأمور إلى هذا الحال ـ أن تنضم هذه السيدة الفضلى إلى جانبٍ آل البيت، الذين لقوا بعد القتل والتشريد من قبَل بنى أمية عقب مأساة كربلاء بالعراق، وأن تجئ إلى مصر فى صحبة السيدة زينب شقيقة زوجها الإمام الشهيد رضى الله عنهما.. فراراً من ظلم وعسف بنى أمية لآل البيت، وأن تعيش فى هذا البلد الآمن بقية سنوات عمرها، رافضة كل طلب للزواج منها، ناذرةً نفسها للتعبد والقراءة وكتابة الشعر.. حتى تتوفى فتدفن بمصر.. كما تذكر المصادر والكتابات القديمة والحديثة، وهو ما تؤكده الدكتورة سعاد ماهر فى تحقيقها عن وفاتها ودفنها فى حديثها عن المسجد والمشهد المقامان باسمها حتى الآن بالقاهرة.

هذه هى القصة الحقيقية لكثرة أزواج السيدة عاتكة رضى الله عنها.. مستندة

إلى المصادر الموثوق بها، مما يدحض أقوال جماعة المستشرقين الذين خاضوا فى سيرة هذه الصحابية الجليلة.. وقالوا فى ذلك أقوالاً لا تليق. بمَنْ كانت فى مكانتها، ولهم فيما يقولون أسباب وأسباب لا تخفى على أصحاب العقول.

إن كثرة زواجها كانت لها أسباب منها وفاة أزواجها، وأنها ـ كمسلمة ـ مؤمنة ـ لا تروق لها الحياة بغير شريك حياة فى الحلال، خاصة أنها كانت بعلمها وثقافتها وجمالها ومواقفها ومكانتها ملتقى لكل راغب فى الزواج من سيدة فضلى مؤمنة على هذا النحو الذى رأيناه.

* * *